ملف خاص

ذكريات لا تنسى

أنور الجندي الإنسان موسوعة تمشي على قدمين

بقلم د. غريب جمعة
مصر

يرحم الله الأستاذ أنور الجندي، فقد انتقل إلى جوار ربه في اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير من العام الحالي عام ٢٠٠٢م، عن عمر يناهز السابعة والثمانين عاماً بالتقويم الهجري، قضى منها زهاء ستين عاماً مع القلم، فكانت ثمرة هذه الفترة عدداً هائلاً من الكتب والموسوعات التي نسأل الله أن يجعلها علماً ينتفع به وأن يجعل ثوابها في صحائف حسناته.

والحقيقة أن الحديث عن الأستاذ أنور الجندي - ذلك العلم والكاتب الموسوعي - لا يتسع له مقال أو مقالات، كيف وهو صاحب الموسوعات، ولكن هذه الكلمة المتواضعة وفاء بشيء من حقه بعد أن عرفته لسنين طويلة.

لقد كنت أزوره في منزله المتواضع بحي الطالبية بمنطقة الهرم بمحافظة الجيزة، وكانت المسافة من مسكني بشارع الملك فيصل إلى منزله تستغرق نصف ساعة سيراً على الأقدام قبل أن تزدحم المنطقة بهذه الصورة التي تجعلك تنظر خلفك وتنظر ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تصطدم بشخص أو بسيارة فتسوء العاقبة.

جاء الرجل من قريته النخيلة بمحافظة أسيوط إلى القاهرة ليعمل في مصرف مصر، ثم اجتذبته دعوة الإخوان المسلمين في بدايتها، ولكنه لم يكتف بلقاء الشيخ حسن البنا - يرحمه الله - بل التقى بشخصيات أخرى من أعلام ذلك العصر مثل: الشيخ عبد العزيز جاويش ومصطفى صادق الرافعي ومحمد فريد وجدي والشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحمد تيمور وأحمد زكي باشا شيخ العروبة وغيرهم من علماء الأزهر والعالم الإسلامي مما كان له أكبر الأثر في مقالاته ومؤلفاته فيما بعد، بالإضافة إلى تأثير أسرته التي كانت على علم ودين. ولما أعانه الله على التحرر من رق العمل المصرفي اتجه إلى الاشتغال بالصحافة الإسلامية، ثم الصحافة العامة حيث عمل بجريدة الجمهورية ولكنه اقتصر على المشاركة في صفحات الأدب والصفحات الإسلامية ثم اتجه إلى التأليف فتوالى ظهور كتبه واحداً إثر الآخر حتى ترك هذه الثروة الفكرية الطائلة.

كانت أول زيارة للرجل عام ١٩٧٦م حينما حملت بعض الأمانات له من أستاذي الجليل الداعية المسلم السيد المهندس محمد توفيق أحمد - يرحمه الله - وفرح الرجل فرحاً شديداً حينما علم أنني واحد من تلاميذ مدرسة البريد الإسلامي وطلب أن تتكرر الزيارة.

وتكررت الزيارة بالفعل وكان لي في كل زيارة - هدية منه إما في صورة مقال له في مجلة من مجلات العالم الإسلامي شرقاً وغرباً، أو في صورة كتاب جديد من كتبه واصفاً ذلك الكتاب بأنه «مولود جديد».

وكنت أداعبه قائلاً: كم يبلغ عدد مواليد حضرتكم الآن؟

فكان يقول: لقد رزقني بابنة واحدة، أما المواليد الآخرون فيحتاجون إلى قائمة لأنهم تجاوزوا المئتين ما بين رسالة وكتاب وموسوعة..!!

ولما سألته كيف استطاع أن يتجاوز هذا العدد من المواليد؟

قال: الحمد لله على فضله وإحسانه - إنني أسير على نظام لا أحيد عنه أبداً، حيث أنام بعد صلاة العشاء، ثم أستيقظ قبيل الفجر فأصلي ما شاء الله لي أن أصلي، ثم أقرأ ما تيسر من القرآن، ثم أبدأ في الكتابة حتى موعد الإفطار. وهو متواضع كما تعرف.

قلت: ولكني لا أرى أوراقاً ولا كتباً ولا أقلاماً في هذه الغرفة التي تكتب فيها..

فقال: هي مخبأة تحت الكرسي ذات الكسوة حتى إذا زارني ضيف لا يشعر بمزاحمة الكتب له، فإذا انتهت الزيارة أخرجتها من مخبئها واستأنفت العمل وهكذا.

قلت : وأين مكتبتكم فأنا لا أرى شيئاً أمامي ؟

فقال: ستراها بعد قليل إن شاء الله، ثم اصطحبني إلى الطابق العلوي الذي تشغل المكتبة جميع غرفه وإذا بي أمام تلال من الكتب والمجلات والجرائد، ثم تجولنا فيها فأحسست كأني أمام دار كتب مصغرة، لذلك لم يكن الرجل بحاجة إلى مراجع من الخارج.. بل لقد كان مرجعاً وموجهاً لكثير من طلبة الماجستير والدكتوراه.. وقد رأيت بعضهم وهو يصحح له بنفسه.

كان الرجل في بيته مثالاً طيباً لرب الأسرة المسلم، وللجد الشفوق.. أذكر أنني رأيته ذات مرة يمشي مع حفيدته ليشتري لها بعض الحلوى وهي – ببراءة الأطفال – تقفز يميناً وشمالاً وهو يركض خلفها ليمسك بها مخافة أن يصيبها أذى من المارة، حتى إذا ما قالت: «خلاص نرجع البيت يا جدو» أمسك يدها وعادا معاً إلى البيت.

فقلت له: هكذا ينزل الفكر الإسلامي من علمائه ليحتضن الطفولة البريئة؟

قال: وماذا تقول لو عرفت أن الفكر الإسلامي يصنع أكثر من ذلك؟ إنني أقوم بتدفئة المياه لها حتى لا تتأذى ببرودة الجو عندما تقضي حاجتها بالليل وأهل البيت نيام. لقد كان يرحمه الله يحيا حياة متواضعة في مأكله وملبسه.. لم يكن يحيا حياة المترفين الذين أبطرتهم النعمة، وأسكرتهم نشوة الغنى فاستكبروا على الناس. وأستأذن القارئ الكريم في ذكر طرفتين – ولا أقول حادثتين – ليرى كيف يعيش معظم أصحاب الفكر ورواد القلم وكأن القائل يعنيهم حينما قال:

هجرت دنياك ولم تشهد مباذلها
ولم تعرج على صحب ولا ألم
ولم تصعد أمانيا إلى شجر
مد الظلال على طين وأوحال

الطرفة الأولى :

أذكر أنني رأيته يقف على رصيف شارع حسين حجازي المتفرع من شارع قصر العيني بالقاهرة والمؤدي إلى مكتبة «الاعتصام» رد الله غربتها ومعها مجلة «الدعوة»، رأيته يقف ويمضغ شيئاً. فلما سلمت عليه قال: تفضل.. وشاركني هذا الطعام. وإذا بالطعام عبارة عن قطعة من البطاطا كما نسميها في مصر أو البطاطس الحلوة كما يسميها الناس في بعض دول الخليج..!

قلت: سبحان الله هل هذا فطورك وأنت على بعد أمتار من المكتبة التي تباع فيها كتبك والناس يمرون من أمامك ولا يدرون أنك صاحب هذه الكتب؟!

قال: الحمد لله.. ألستم معشر الأطباء تقولون إن الإنسان يحتاج إلى كذا من السعرات الحرارية.. وكم يلزم شيخاً مثلي؟ إن أقل الطعام يكفيني!!

فأما الثانية :

فقد دعاه الأستاذ الدكتور عبد الله شحاته لإلقاء محاضرة في كلية دار العلوم حينما كانت في مقرها القديم، واصطحبه صاحب هذه السطور، وبينما كنا ننتظر الحافلة لاحظ – يرحمه الله – أنني أنظر إلى قدميه وأبتسم. فسألني لماذا تبتسم، فقلت: من فضلك! أنظر إلى حذائك، فإن رباط القدم اليمنى يختلف عن اليسرى، فقال: لم أنتبه إلى ذلك، وأحمد الله أن جمهور الحاضرين سيحكم علي من خلال ما أقول. ووصلنا إلى الكلية وافتتح الرجل المحاضرة هادئاً ثم تدفق كالسيل الجارف بصورة أدهشت الأساتذة قبل الطلاب ثم جاء دور الأسئلة.. ولقد جمعت إجابته عنها بين الصدق والصراحة والإقناع، وانتهت المحاضرة.. ووقف الأستاذ الدكتور عبد الله شحاتة للتعقيب وكان مما قاله يومئذ: «إنني أحيي وأقدر هذه الموسوعة العلمية المتحركة على الأرض، والتي تسمى أنور الجندي على تواضع جم وأدب عال.. إلخ».

لقد ضرب الرجل بسهم وافر في مجالات متعددة، فقد واجه حملة التغريب الشرسة والاستشراق والتنصير الذي يطلق عليه التبشير والدعوات الهدامة كالشعوبية والغنوصية والإلحادية وغيرها.. الى جانب دراساته الأدبية والتاريخية.

وحينما أصدر كتابه عن طه حسين، أصاب بعض الكتاب، فشنوا عليه حملة شعواء حتى وصفه أحدهم بقوله:

أنور الجندي كاتب أرشيفي لا تصلح مؤلفاته إلا للاستعمال في دورات المياه.

ولما زرته – كالمعتاد – وسألته : هل قرأت ما كتبه فلان عنك؟

قال : نعم.

قلت : وما رأيك ؟

قال: ليقل عني وليصفني بما شاء فهذا شأنه وهو مسؤول أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ عما يكتب، وأنا أتوقع أكثر من ذلك طالما تعرضت للكتابة عن طه حسين بالطريقة التي لا ترضي تلاميذه.

قلت: هل سترد عليه؟

قال: نعم، ولكن ليس بالهبوط إلى مستوى دورات المياه.

وقد قام بالرد على هذا الكاتب بأسلوب يجمع بين العفة وبحض الحجج، بل نسفها بمنطق يفرض احترامه حتى على الخصوم قبل المحبين.

ومضى على ذلك وقت ليس بالقصير. ثم زرته كالمعتاد، ومن الموافقات العجيبة أن يدق جرس الهاتف.. فلما رد عليه قال: أتدري من المتحدث؟ قلت: الله أعلم. قال: إنه فلان.. الكاتب الذي وصفني بكذا وكذا.. وهو يطلب مني أن أكتب لمجلته؛ ولما سأله: ولماذا وصفتني بما وصفتني؟ قال: أردت أن أفتعل معركة لتنشيط الفكر ولشحذ همم الكتاب للكتابة والرد عليها. فكان رده عليه – يرحمه الله – أن تنشيط الفكر يكون بالإنصاف.. واعتذر عن الكتابة.

حقيقة إن الذكريات عن الأستاذ أنور الجندي كثيرة، ولولا أن في سردها حديثاً عن النفس لكانت أكثر من ذلك.

رحم الله ذلك الكاتب الموسوعي.. وجعل مؤلفاته ودائع شكر في الدنيا، وذخائر أجر في الآخرة إن شاء الله.